نماذج من شعر الأطفال فى لبنان

د. عبد المجيد زراقط *

مُقدمة

نحاول، في هذه الدِّراسة، تقديم معرفة بشعر الأطفال في لبنان، من طريق التعريف بأبرز الشُّعراء اللبنانيين الذين نَظَمُوا شعرًا موجَّهًا للأطفال. ونرى أنَّه من المنهجيِّ البدء بالحديث الموجز عن نشأة أدب الأطفال في الوطن العربي وتطوُّره، وعن خصوصيَّة التجربة اللبنانية في هذا المجال.

شيء من التاريخ

أدب الأطفال حديث النشأة في الأدبين: العالمي والعربي. وتعود بداية الكتابة الأدبية للأطفال، في الأدب العربي، إلى منتصف القرن التاسع عشر، وبالتحديد إلى سنة ١٨٤٥، وهي سنة صدور كتاب "تعريب الأمثال في تأديب الأطفال"، وهو كتاب مترجم عن الفرنسية، ترجمه عبد اللطيف أفندي، ونقَّحه وعدَّله رفاعة الطهطاوي (1801 / 1873)[1].

ويمكن التحدُّث عن مرحلتين عرفهما مسار تطوُّر أدب الأطفال العربي؛ أولاهما تمتدُّ من منتصف القرن التاسع عشر إلى أواخر العقد السابع من القرن العشرين، وهي مرحلة الرِّيادة والتأسيس، وثانيتهما تمتدُّ من أواخر ذلك العقد إلى أيامنا هذه، وهي مرحلة التأصيل، مع ملاحظة بدء مرحلة جديدة يسمِّيها بعض النقاد تجريبيَّة، بدأت منذ أوائل هذا القرن، ولا تزال مستمرَّة. وهي، كما تفيد تسميتها، تجريبية، يحاول روَّادها، كما يقولون، الإتيان بالجديد المتميِّز الذي تمليه حقائق العصر.

* ناقد أدبي وقاص وروائي وكاتب أدب الأطفال، لبنان.

خصوصية التجربة اللبنانيَّة

تتَّصف كتابة أدب الأطفال، في لبنان، بصفات، منها:

1. مشاركة كُتَّاب الوطن العربي في تجربة الطباعة والنشر، في لبنان، ومنها طباعة كتب الأطفال؛ وذلك لتوافر عدَّة عوامل، منها: وجود مطابع حديثة، ودُور نشر وتوزيع ناشطة، تجيد صناعة الكتاب وتسويقه، وتوافر مناخ من الحرية يتيح للمبادرة الفردية العمل من دون معوِّقات؛ الأمر الذي أدَّى الى غزارة الإنتاج، واستسهال النَّشر، سواءً في دور النَّشر المختصَّة بأدب الأطفال أم في دور النَّشر التي تخصِّص قسمًا لهذا الأدب.
2. تنوُّع المراجع التي يصدُر عنها هذا الأدب بين مؤسسات تربويَّة طائفيَّة ومدارس خاصة، ودُور نشر خاصة ، وتنوُّع الكتابات بين تقليدية وحديثة وتجريبية.
3. غياب أي فاعليَّة للدولة في هذا المجال، وغياب الرقابة والتوجيه.
4. حضور الأقطار العربية على مستوى مشاركة الكُتَّاب العرب في الإنتاج، وعلى مستوى التوزيع/ السوق؛ الأمر الذي جعل ناشر أدب الأطفال اللبناني يراعي خصوصيَّات هذه الأقطار وثوابتها والعمل على تجويد الإنتاج[2].

في المرحلة الأولى

يفتقر تاريخ أدب الأطفال، في لبنان، في المرحلة الأولى، إلى المصادر اللازمة لكتابته كتابة شاملة ومفصَّلة. ومع هذا، يمكن التحدُّث عن اتجاهين: أوَّلهما مدرسي اعتمد على الاختيار من أدب الكبار وأدب الأطفال لأدباء عرب ولبنانيين، وثانيهما أدب مطالعة غير مرتبط بالتعليم. وبدأ، كما في كثيرٍ من الأقطار العربية الأخرى، ترجمةً للأمثال والقصص المُتضمِّنة حِكَمًا ومواعظ، ثم تلت كتابات تقتبس وتعدُّ، ثم بدأ التأليف الذي لم يلبث أن ازدهر؛ ليلبِّي طلبات دُور النشر الخاصة التي نشطت لتلبية حاجات المدارس والسوق العربية، وليلبِّي، أيضًا، طلبات المجلات الموجَّهة للأطفال التي كثرت في هذه المرحلة، ومنها: دنيا الأحداث والفرسان.

وكان للشعراء اللبنانيين، في هذه المرحلة، تجارب في كتابة شعر الأطفال، ومن هؤلاء الشعراء، نذكر بطرس البستاني (1891 – 1883) وخليل مطران (1872 – 1949) وحليم دمُّوس (1888 – 1957) وإبراهيم المنذر (1875 – 1950) الذي نَظَم القصيدة المعروفة: "قلب الأم". ورياض المعلوف (1912 – 2013) الذي نظم قصيدة: "غنِّ ياعصفورة غنِّ " وإيليا أبي

ماضي (1889 – 1957)، وله عدة قصائد، منها: "طفولة" وميخائيل نِعيمة (1889 – 1988)، وله قصيدة "الطمأنينة" التي لم يخلُ منها أيُّ كتاب مدرسي في المرحلة المتوسطة، ومحمد علي الحوماني (1898 – 1964) الذي نظم أناشيد مدرسية، وإلياس أبو شبكة (1902 – 1947)، وله تجربة متميِّزة في كتابة شعر الأطفال، ومن قصائده، في هذا المجال: "يا بلادي" و"الفلَّاح" و"ألحان الشتاء"، وحوارية "عيد في القرية" التي تتميز بمعجمها اللغوي السهل وعباراتها القصيرة وبنيتها الحوارية، وإيقاعها المنغَّم، وروحها الشعبية، ومنها: "بائع الحلوى: حلوى المعلَّل / سكَّر مشكَّل/ أحمر أخضر، أشقر...".

في آونة مبكِّرة، نظم بطرس البستاني قصيدة "وطني" التي قرأناها وحفظناها، ونحن تلامذة، وهي تجربة ناضجة جاءت في وقت مبكر، لتنطق برؤية وطنية، بلغة سهلة واضحة، في زمنٍ كانت اللغة العربية فيه إمَّا ركيكة أو متينة مُصنَّعة، ومطلع هذه القصيدة:

"سواد العين، يا وطني فداكا / وقلبي لا يودُّ سوى عُلاكا...".

ونظم خليل مطران مجموعة من الأراجيز والحكايات الشعرية للأطفال والشباب جمعها أخوه ألبير، وأصدرها بعنوان: "إلى الشباب".

ويُعدُّ حليم دمُّوس من روَّاد الحركة القومية العربية، وأحد الشعراء المجدِّدين، وقد أسهم في نَظْم شعر الأطفال، وكنَّا قد قرأنا، ونحن تلامذة نشيده البسيط العميق، في آن، المتَّخذ شكل الموشَّح، والمعتمد بحر البسيط غير السالم: "أرض أجدادي"، ومطلعها:

"عليك منِّي السلام / يا أرض أجدادي / ففيك طاب المُقام / وطاب إنشادي...".

ومن نماذج إبداعه الشعري:

"وقف الطفل، ونادى: يا أبي/ ألنا خُلقت هذي النجوم؟ / فإذا كانت لنا، ما بالها / لم تزُرْنا، وهي في الجوِّ تحوم؟ / ليتنا، يا والدي، نلمسها / مثلما نلمس أطراف الغيوم"[3].

في المرحلة الثانية

يمكن التحدُّث عن أهمِّ الشعراء اللبنانيين الذين نَظَموا شعرًا للأطفال، في المرحلة الثانية، من طريق اختيار ثلاثة شعراء كبار، بوصفهم نماذج ممثِّلة، وهم: محمد علي شمس الدين وجودت فخر الدين وحسن عبد الله.

محمد علي شمس الدين (1942 –) الشاعر الكبير المعروف، وكاتب أدب الأطفال

والمقالة الفكرية والأدبية. يحمل إجازة في الحقوق ودكتوراه في التاريخ. يُعدُّ في طليعة شعراء الحداثة في الوطن العربي. حاز، سنة 2012 جائزة العويس الشعرية. تُرجمت أشعاره إلى عدَّة لغات؛ منها الإسبانية والفرنسية والإنكليزية. أصدر ست عشرة مجموعة شعرية وثلاثة كتب نثرية، وكتابًا في البحث التاريخي، وأصدر، في أدب الأطفال، مجموعتين قصصيَّتين؛ هما: "غنُّوا غنُّوا"، و"قصص ملوَّنة"، إضافة إلى نصوص شعرية نُشرت في مجلة "أحمد". من قصصه: "عندما تهب العاصفة"، "حكاية الجدَّة أم عاصم"، "نلتقي إذا جاء المساء"، "العودة إلى المنزل"، "صلاة زهرة عبَّاد الشمس"، "شاعر صغير"، "صورة تذكارية مع عصفور"، "أغاني المطر".

يرى بيان الصَّفدي أنَّ تجربة محمد علي شمس الدين، في كتابة أدب الأطفال، متميِّزة، ومن أبرز صفاتها: "الاهتمام الواضح بالصورة الشعرية، والموضوع الشفَّاف المناسب للطفل، كما نلاحظ في "خيمة في الكروم":

"لي خيمة في كَرْمة العنب/ خضراء من ورقٍ وأغصان/ زينتها بالزَّهر والقصب/ وجعلتها بيتي وبستاني/ تأوي إليها نجمة الليل/ وتنام فوق سريرها العالي/ والبدر يدنو من مداخلها/ كالطِّفل يدخل ناعم البال/ أمضي إليها أوَّل الصيف/ وأعود منها قبل تشرين/ ما أجمل الدُّنيا وألطفها/ في خيمةٍ كالبيت تؤويني""[4].

موضوع القصيدة مأخوذ من طبيعة الرِّيف، والمشهد هذا من الماضي، فخيمة الكروم، قلَّ أن توجد في هذه الأيَّام، وابن المدينة لا يعرفها، فيعرِّفه الشاعر بها، ويرسمها له في المقطع الأوَّل ملوَّنة مزيَّنة، ويجعله يتخيَّل كيف تصبح هذه الخيمة بيتًا وبستانًا. وغدوُّها بستانًا يعني أنَّ ما حولها أشجار تزهر وتثمر.

وفي المقطع الثاني يرسم الشاعر مشهدًا آخر، هو ما يراه الطِّفل بعد أن يسكن في بيته الخيمة، فالسَّماء صافية، والنجمة لامعة قريبة، والبدر دانٍ...، يدخل كالطفل ناعم البال، وهذه صورة مبتكرة للطفل الذي يعيش في هذا الجوِّ الجميل. وينتقل الشاعر، في المقطع الثالث، إلى السرد الذي يقدِّم معلوماتٍ عن الإقامة فيها، ويُفضي إلى الإعجاب بجمال الدنيا ولطفها في هذه الخيمة.

يرسم الشاعر عالمًا جميلًا صافيًا يشعر فيه الطِّفل بجمال الدنيا ولطفها بلغة سهلة، معجمها اللغوي مألوف، وعباراتها قصيرة، ووصفها حسِّي ملموس، وصورها واضحة، يشكِّل الطفل عنصرًا من عناصرها، تتألَّف من ثلاثة مقاطع، لكلِّ مقطع قافيتُه، المشبعة بحرف المدِّ وكسر الرَّوِي، ويتكرَّر فيها ضمير المتكلِّم الذي يؤدِّي الخطاب وضمير الخيمة، فهما محورا هذه

القصيدة، أمَّا الوزن فيبدو أنَّه بحر السريع الذي تتحوَّل فيه مَفْعُولات، إلى فَعِلنْ، أو فِعْلن، غير أنَّ تفعيلة متفاعلن تتكرَّر، فيبدو كأنَّ البحر من الكامل الذي تكثر فيه الجوازات. وهذا يعني أنَّ الشاعر ترك لتجربته أن تُملي الإيقاع، وإن كان في ذلك انزياحُ عَرَوضِي. تقدِّم هذه القصيدة معرفة بالطبيعة والحياة فيها في مناخ لطيف جميل يحبِّب الطفل بالرِّيف.

جودت فخر الدين (1953 –): الشاعر الكبير المعروف، أكاديمي، حائز شهادة الماجستير في الفيزياء، والدكتوراه في الأدب العربي. يَنْظِم الشعر، ويكتب المقالة الأدبية وشعر الأطفال. شارك في تأليف بعض المعاجم. أصدر عشر مجموعات شعرية، وكتبًا في تاريخ الأدب ونقده، ونشر قصائد للأطفال في مجلَّتَيْ أحمد وتوتة.

فاز بـ "جائزة الشيخ زايد لأدب الطفل والناشئة"، دورة 2013 / 2014، عن كتابه: " ثلاثون قصيدة للأطفال"، وهو مختارات من قصائده المنشورة سابقًا، وجاء في بيان خصائص هذا الكتاب: تتضمَّن قصائده "معاني شعرية تحفِّز على التفكير الإيجابي، وتفضي في الوقت نفسه إلى التأمُّل، واستخدام الخيال، إضافة إلى بساطة اللغة وجمال الإيقاع الذي يصنع إحساسًا إنسانيًا، يؤدِّي إلى صفاء النَّفس ونقاء الطبيعة، وتنوُّع القصائد والأفكار؛ ما يؤدِّي إلى زيادة الحصيلة المعرفية والتأمُّلية لدى الأطفال، ناهيك عن طباعة الكتاب الأنيقة، ورسومه الجميلة، وخطوطه السهلة والمكبَّرة. يتألَّف هذا الديوان من ثلاثين قصيدة كُتبت بلغة سهلة، منسابة، وسليمة، تلائم مراحل الطفولة، كما أنَّها تنطوي على رسائل جمالية وتربوية، وتتوقف عند مظاهر يراها الطفل ببصره وحواسِّه وخياله".

من قصائد هذا الديوان التي تتميز بلغة سهلة، وموضوعات محبَّبة، نقرأ مقطوعة: "عصفورة": "عصفورة/ من ورق/ لوَّنتها/ بالأزرق/ أطلقتُها/ للأفق/ هَوَتْ ولم/ تزقزق". فالمقطوعة قصيرة، تلائم المرحلة العمرية التي تتوجه إليها (5 سنوات وما فوق)، موضوعها مأخوذ من عالم الأطفال، فيتغنَّى الشَّاعر بلُعبة من لعبهم، ويسرد وقائع من حياة هذه اللعبة، لكنَّ المفاجأة تحدث، فإذا هذه العصفورة لا تزقزق، وهذا يلائم ما جاء في البيت الأوَّل، فهي لعبة، فالنَّص يقدِّم معرفة وترفيهًا؛ أي يقدِّم قيمتين تربويتين: أولاهما معرفيَّة وثانيتهما ترفيهية، بِلُغة سهلة، وعبارات قصيرة جدًا؛ ما يعزِّز الرأي الذي يصف لغة شعر فخر الدين بـ "الاقتصاد" أو "التقشُّف"، والإيقاع هو إيقاع منهوك بحر الرَّجَز غير السالم، والقافية تتتابَع كأنها أصوات هذه الطائرة الورقية التي تُطلق للأفق، ويلاعبها الهواء.

ونقرأ مقطوعة "مطار": "تحلِّق طائراتٌ/ وتهبط طائراتٌ/ فناسٌ يرحلون/ وناسٌ يرجعون/ وأرجاء المطار/ تظلُّ على انتظار". تتصف هذه المقطوعة بخصائص المقطوعة السابقة، وتقدِّم معرفة بالمطار، الذي لا تنقطع فيه الحركة، ويأتي إيقاع مجزوء البحر الوَافِر الذي تتتابَع في تفعيلته الأولى ثلاث حركات؛ لتُشعر بهذه الحركة التي لا تهدأ...، ولعل هذا ما جعل القافية تتنوَّع.

وإن قرأنا مقطوعة "فصول"، ونصُّها: "الأرض كالحسناء/ بديعة الأزياء/ تلتفُّ في الخريف/ بالأصفر الشَّفيف/ تبيَضُّ في الصقيع/ تخضَرُّ في الرَّبيع/ وصَبْغُها الفتَّان/ ظلاله الألوان"، نلاحظ ما يأتي:

1. تشبيه الأرض بالحسناء؛ أي بالمرأة الحسناء. لا يستطيع الطِّفل، في عمر قرَّاء "توتة توته"، خمس سنوات، إدراكه، فهو يستحضر شرحًا لبيان أوجه شبه الأرض بالمرأة، وقد سبق ابن الرُّومي إلى هذا التشبيه، ويستدعي شرحًا عن المرأة الحسناء، وغير الحسناء، وقبل ذلك إعادة ما حُذف، وهو المرأة، أو الفتاة.
2. وإذ ينتقل الشاعر إلى بيان أوجه الشبَه، نلحظ أن لفظتَيْ: "بديعة الأزياء" صعبتا الفهم، فبديعة لفظة غير محسوسة، والأزياء، جمع زِيّ، تحتاج إلى شرحٍ طويلٍ طويل، ثم كيف لطفل في هذا العمر أن يدرك أنَّ المرأة تغيِّر أزياءها كما تغيِّر الأرض فصولها، أو العكس. هذه لغة موجَّهة للكبار ومتداولة بينهم.
3. ثم يفصِّل، في بيان الأزياء – الفصول، ونلحظ أنَّ "تلتف بالشفيف" صعبة الإدراك، فما هو هذا الأصفر الشَّفيف الذي تلتفُّ الأرض به في الخريف؟ إنَّه شيء غير محدَّد، وغير محسوس، ثم غير مُدرَك، ثمَّ ما "الشفيف"؟ هل يمكن أن يُرسم، ويُدرك بالحواس؟
4. ويواصل تتبُّع تغيُّر الأزياء – الفصول، فإن كان "الشفيف" صعب الإدراك، فإنَّ تبيَضُّ وتخضَرُّ محسوستان، وتدلَّان على تغيُّر الألوان، لكن لم تبيضُّ؟ نجيب: لأن الثلج يسقط في الصَّقيع، وهل الشتاء هو الصقيع والثلج فحسب؟ ثم لماذا الصقيع وليس الشتاء؟ نجيب: القافية فرضت هذا، وتخضرُّ استدعت تبيضُّ، ولكن ما علاقة هذا بالحسن
5. إن صورة "ظلاله الألوان" صورة صعبة الإدراك، على مستويَي التصوُّر والدلالة، إضافة إلى أنَّ لفظة "الفتَّان" صعبة الإدراك، وغير محسوسة.

يبدو أنَّ هذه المقطوعة سهلة على مستويَي تركيب العبارة والإيقاع، صعبة على مستويَي المعجم اللغوي والصُّور الشعرية؛ ما يجعلها أقرب إلى شعر الكبار، على هذين المستويين، وعلى مستوى الرؤية التي تصدُر عنها والدلالة التي تنطق بها.

وفي قصيدة عنوانها: "لُغَتِي"، يتكرَّر ضمير المتكلِّم؛ ليكون المحور الأساس؛ ما يعني أنَّ هذه اللغة هي مُكوِّن من مكوِّنات شخصيته:

"لغتي العربيَّة تحضنني،/ وتخاف عليَّ،/ وتحميني/ فيها أنمو، وأغنِّي، وأحبُّ/ هي الفجر، هي الشَّوق/ هي الصحراء، هي البحر/ تخاف عليَّ، وتحميني/ لغتي سهل للَّعب/ أنغامٌ للطَّرب/ أحلامٌ، صورٌ/ آياتٌ/ تعلو كالأشجار..."[5].

حسن خليل عبد الله (الخيام، 1944 –): تجربة حسن عبد الله، في كتابة أدب الأطفال متميِّزة، فهو شاعرٌ وقاصٌّ، وكاتبُ أدب أطفال تفرَّغ لكتابة هذا الأدب والرعاية له. يحمل إجازة في اللغة العربية وآدابها، عمل في التدريس في المرحلة الثانوية، وفي الصحافة الثقافية، وفي صحافة الأطفال. كتب أولى قصائده، وهو في الثانية عشرة من عمره. نشأ في أسرة تهوَى القصص والسيَر الشعبية. كان يصغي إلى الحكايات، ويحكيها، فتشكَّلت لديه مَلَكة القصّ. ينتمي إلى جيل تعرَّف إلى السِّياسة والثقافة باكرًا. اقتنى الكتب، وهو في الرابعة عشرة من عمره، وقرأها، وناقش محتوياتها هو ورفاقه في زمن كان حافلًا بالنَّشاط السياسي والاجتماعي والثقافي اليساري والأحلام القومية المشرقة. بدأ مسيرته الأدبية شاعرًا للكبار، فأصدر مجموعته الشعرية الأولى: "أذكر أنَّي أحببت" سنة 1978، "والدَّرْدارة" وهي قصيدة طويلة أخذت عنوانها من اسم نبع "الدَّردارة" الذي يروي "مرج الخيام" الواقع على الحدود اللبنانية الفلسطينية سنة 1981. كان أحد شعراء المجموعة الشعرية التي أُطلق عليها اسم "شعراء الجنوب" في زمن توهَّج فيه شعر هذه المجموعة، في كلية التربية، في الجامعة اللبنانية. ثم انفضَّ عقد هذه المجموعة، ومضى كُلٌّ من شعرائها في مشروعه الشعري. قلَّ إنتاج حسن عبد الله الشعري بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة 1982، وكان قد استجاب، سنة 1977، لدعوة "دار الفتى العربي" لكتابة مجموعة من قصص الأطفال، فكتب القصص، وصدرت في ما بعد، عن "دار الفارابي" ضمن سلسلة "جنَّة الأطفال".

يبدو أنَّ هذه التجربة مثَّلت لديه تحوُّلًا، فوجد نفسه أقرب إلى عالم الأطفال من عالم الكبار، فأصدر "أنا الألف"، وهي مجموعة أناشيد للأطفال، عن "مؤسسة تالة"، ولحَّنها وليد غلمية.

لحَّن له مارسيل خليفة وغنَّى قصيدتين؛ هما: "أجمل الأمهات" و"من أين أدخل في الوطن"؟

بعد صمت طويل، أصدر، سنة 1999، مجموعة شعرية عنوانها: "راعي الضباب"، وسنة 2012، مجموعة أخرى عنوانها: "ظل الوردة"، يقول إنها "شعر التأمل".

أصدر ستين كتابًا للأطفال بين شعرٍ ونثر، ونال "جائزة الابداع الأدبي في حقل أدب

الأطفال" سنة 2012، من مؤسسة الفكر العربي، نذكر من هذه الكتب، إضافة إلى "أنا الألف"، "الدرَّاجة الزرقاء"، "على أبواب الصين"، "امتحان"، "التفاحة"، "لستُ لصًا"، "الأصدقاء الأعداء"، "يوم خارج المدرسة"، "الكيس الضائع"، "بين هذا وذاك"، "أغنية الفصول".

تقول نوال العَليّ: حسن عبد الله "صاحب أحد أعذب الأصوات الشعرية في جيل السبعينيات، يعيش في الهامش مثل "صياد الفخ" (عنوان إحدى قصائده). حياته كلها تحدث بين مقهيين في بيروت: "كافيه دي باري" نهارًا، و"سيتي كافيه" مساءً.

"الطفولة هي سبب هذا الشاعر العصفور... الطفولة كل أسبابه"[6].

هذا يعني أنَّ الطِّفل، في داخله، لا يزال متوهجًا، كما يقول طلال سلمان: حسن عبد الله "يدهمه الصَّلَع، ويبلغ ما تبقَّى من شعره الشَّيب، فيبقى الطِّفل، في داخله، متوهجًا، قلقًا، مدثَّرًا بالسَّذاجة..، ربما لهذا يعتبره كثيرون مثلي واحدًا من أنجح الأقلام التي كتبت للأطفال..."، أما قصائده للأطفال فعديدة ومتميِّزة حتى تحسب أنها تشكل سيرته الذاتية.

سبب آخر من أسبابه هو الجنوب. يضيف سلمان: "لا ينسى حسن العبد الله الجنوب، بل لعله يهرب إليه كلما أحسَّ أنه يريد أن يتنفَّس ملء رئتيه.

يكتب عن الجنوب:

"جيم، جيم الجنوب، أو جبل عامل/ الجنة أو الجحيم/ الجنة عندما ما يكون لي/ والجحيم عندما يكون لعدوِّي"[٧].

نقرأ لحسن عبد الله قصيدة طويلة عنوانها: "أغنية الفصول"، صدرت في كتاب يحمل العنوان نفسه، وموجَّه إلى المرحلة العمرية (5 سنوات وما فوق). الرُّسوم لمحمَّد سعيد بعلبكي.

يتخذ الكتاب شكل المربَّع، والرَّسم على الغلاف يشير إلى الفصول الأربعة، الورق أبيض مصقول، والإخراج متقن. والصفحات يتقاسمها رسمٌ في الأعلى يأخذ ما يزيد على ثلثَيْ مساحة الصفحة، والنَّص في الأسفل، لا يزيد على خمسة أسطر، ولا يقلُّ عن سطرين في الصفحة، تتضمَّنه 23 صفحة من 25 صفحة هي عدد صفحات الكتاب. وهذا مريح للقراءة، مُغرٍ بها؛ وخصوصًا أنَّ الرسوم، وإن لم تكن واقعية، موحية، فعلى سبيل المثال، نلحظ في بداية القصيدة، ولدَى الحديث عن الشتاء، أنَّ الرسم يوحي بمظهرين من مظاهره: الأول الرَّعد، ويوحي به رسم البنت وهي تضع كفيَّها على أذنيها، والثاني المطر، ويدل عليه حمل الصبي لمظلَّةٍ، والمُلاحظ أنَّ البنت، محجَّبة، وترتدي ثيابًا شرعيَّة، ما ينطق بدلالة دينية، وأنَّ الصبيَّ يضع على رأسه طاقية تحميه من البرد.

يبدأ النصُّ، بعد العنوان: الشتاء، بالسَّرد: "حلَّ الشتاء بأرضنا/ فيما الخريف يودِّع"، ويلي وصف سردي. يصف ويخبر عن الرَّعد والبرق والمطر والشجر والحقل والجبال، وضرر هذا الفصل ونفعه وطبيعة الحياة فيه. ثم يلي، بعد العنوان: "الربيع"، الوصف السردي للربيع: "هذا الربيع قد أتى/ أتى، أتى، بعد الشتاء"، فيخبر عنه، وهو يصف حُلولَه وهو فتى وضحكه، وشبَّهه بالطِّفل، وكل شيء فيه جنة: من زهر وطير وجدوَل وهواء...، ما يُغري بالنزهة، ثم يأتي الصيف، ونقرأ، بعد العنوان: "الصيف" عبارات وَصْفية، ويبدو كأنَّ السياق قُطع، وبدأ نصٌّ جديد، جُملُه إسمية توحي بالدَّوام، تصف هذه الجمل سماء الصيف، وشمسه، وحقول القمح وكروم التين والعنب والبساتين فيه، وحَرَّه وحشراته وحياة الأطفال فيه بعيدًا عن مدارسهم. لكن هذا السِّياق لا يستمر، إذ يُقطع، ويبدأ، بعد العنوان: "الخريف" الوصف السردي والسَّرد الوصفي، فتُخبر النسمة الباردة عن قدوم الخريف، ثم يخبر هو عن أشجار الحديقة: "يابسة صفراء الورق"، وعن الريح، والشمس الشاحبة، وعن الحياة فيه، فيذهب أهالي قريتنا لقطاف الزيتون...، وتعود الدنيا من لهو العُطَل إلى العمل الذي يسعد به الجميع. ويعود الطفل إلى مدرسته...، ويقرِّر الشاعر، في ختام القصيدة: "فحياة الإنسان فصولٌ/ دائرة كفصول السنة".

تقدِّم هذه القصيدة معرفة شعرية بفصول السنة، وتتخذ بنية متماسكة، سردية وَصْفية، ووصفية سردية، ثم وصفية، ثم وصفية سردية...، وتنتهي بتقرير حكمة مباشرة تأتي خلاصةً لما تمَّ التعريف به. والسؤال الذي يُطرح هو: هل يمكن لطفل السنة الخامسة أن يعرف أنَّ حياة الإنسان شتاء وربيع وصيف وخريف؟ إنَّ هذا يحتاج إلى شرح؛ وخصوصًا إن طُرح السؤال: ماذا بعد الخريف؟ هل سيتمُّ الكلام على الفرق بين الإنسان والطبيعة؟ وعن الموت والولادة الجديدة؟ يبدو أنَّ الرَّبط بين فصول السنة وفصول الحياة الإنسانية أمر شائك يُفضي إلى الكلام على أمور ميتافيريقية دينيَّة، ليس من السهل على الطِّفل أن يدركها في المرحلتين الطفوليَّتين اللتين تليان السنة الخامسة من العمر، والنَّص على أن هذه القصيدة موجَّهة إلى سن الخامسة وما فوق غير دقيق، وإن كان يعني أن الإبداع ليس له عمر يقرؤه الصغير والكبير، فإن أمورًا قد لا يستطيع الصغير إدراكها في مرحلة عمريَّة معيَّنة.

تذكِّر هذه القصيدة بمقطوعة "فصول" لجودت فخر الدِّين، وفيها، كما مرَّ بنا شبَّه الشاعر الأرض بالحسناء، وفي هذه القصيدة يشبِّه الشَّاعر الطَّبيعة بالإنسان وفصولها بمراحل حياته، وكلٌّ من التَّشبيهين صعب الإدراك على ابن طفل الخامسة من العمر، والسؤال الذي يُطرح هو: لِمَ

هذا الاهتمام بالفصول وشبهها بالإنسان؟ أليس من طرائق أخرى للتعريف بالفصول؟ في كتب القراءة القديمة نصٌّ سردي جميل، يروي حكاية رجل لم تستطع ريح الشتاء أن تجبره على خلع معطفه، وجعلته حرارة الشمس يفعل ذلك، فبان الفرق بين الفصلين للطفل، وهو يقرأ قصَّة قصيرة مُسلِّية ممتعة؛ مقدِّمة معرفة جماليَّة.

إيقاع هذه القصيدة الوَزْنِي هو إيقاع مجزوء بحر الكامل، غير السالم، ويكاد يكون لوفرة الجوازات: مُسْتَفْعِلُنْ بدلًا من مُتَفَاعِلُنْ من مجزوء بحر الرَّجز، وهذا يدلُّ على أن انزياحًا عَرُوضيًا حدث، غير أنَّ القصيدة بقيت تقليدية عروضيًا، فهي موزونة مُقفَّاة، والقافية متنوعة، موحَّدة في القسم الأول = الشتاء، متنوِّعة في باقي الأقسام، ويبدو أنَّ وحدة القافية تُلجئ الشاعر إلى تشبيه شجر الحديقة بـ "الأقرع"، وهذه كلمة توحي بما ينفِّر الطّفل، فالأقرع ليس "الأصْلَع" فحسب، كما أنها تجعله يستخدم مفردات صعبة الفهم مثل "تتلفَّح"، و"تتضوَّع". أو يستخدم مفردات مضافة ويحذف المضاف إليه، كما في "وكل شيءٍ منظر"؛ أي منظر جميل، وقد يكون، في هذا الحذف، تحفيز لمشاركة الطفل في التفاعل مع النَّص.

المعجم اللغوي مألوف وسهل، والمعنى في الغالب مُعْجمي لا يحتاج الطفل إلى جهد لتحصيله، لكن النَّص لا يخلو من كلمات صعبة الفهم، ملتبسة المعنى؛ مثل "تتيه" وعامَّية؛ مثل "خلَّى" و"ينطّ" و"يفرقع" و"ينقره"، وقد تكون العاميَّة ذات الأصل الفصيح مُحبَّذة في السياق الذي يقتضيها، كما أنَّ بعض المفردات غير دقيقة الأداء، فالأشجار في الخريف لا تغدو "يابسة"، إنما عارية، والصيف ليس "المتواري"، وإنما المنقضي.

العبارات بسيطة التركيب، سهلة، تتنوَّع بين إسمية وفعلية، وجميعها خبرية حتى المنفية منها تؤدي خبرًا، ليس من تنوُّع في الأساليب، ولا من انزياح في التراكيب، وهذا يسهِّل الفهم. نلحظ في السرد استخدامًا لتقنية قصصيَّة تفارق الإخبار عن الماضي إلى الاستباق: "بعيدًا عن مدارسنا/ بلا خجل من الكسل/ سنقضي الصيف في النزهات/ بين البحر والجبل". ولكن مَنْ مِنَ الأطفال يُتاح له ذلك، فهل تنطق هذه القصيدة بلسان أطفال فئة اجتماعية توفِّر لأبنائها التمتُّع بهذه النُّزهات؟

تتكرر عبارات كثيرة، تؤدي وظيفة تأكيد الحدث والتركيز على الشيء، كما في تكرار "ما كان"، و"أتى" الربيع كأن قد ذهب، و"كل الدنيا كلها، و"أتى الربيع" يفضي إلى القيام بالنزهات، فتتكرَّر الدعوة إليها ثلاث مرات، ويتكرَّر الصيف الذي تُضاف إليه شمس الأرض ووجهها...

التعبير كما قلنا، سردي وصفي، أو وصفي سردي، وهو مباشر في الغالب، تتخلله صور شعرية واضحة؛ مثل: "مطر يسيل من الغيوم/ كما تسيل الأدمع"، والتشبيه هنا مُوحٍ بالحزن، وهو ما يوحي به مناخ الشتاء، لكن ألا نلاحظ المبالغة في هذا التشبيه؟! وأي أدمُع تسيل كما المطر، فكيف إن كان المطر مشبَّهًا والدمع مشبَّهًا به؟ وكما قلنا آنفًا، فإن وصف الشجر بـ "الأقرع" مُوحٍ بصورة منفِّرة؛ وكذلك فإن تشبيه الحقل في الشتاء بالمستنقع غير واقعي، فالحقول تُحرث وتُزرع في الشتاء، ولا يكون واحدها كالمستنقع وصورة الجبال تتلفح بثلوجها تُؤَنْسِن الجبال، وهرولة الجدول تفعل الشيء نفسه. وكذلك حلول الربيع في أرضنا ولم يزل فتى، غير أنَّ صورة مجيء الربيع "كبرعم تفتُّحًا" تقلِّل من شأن هذا الفصل الذي تتفتح فيه براعم الدنيا كلها، والجميل أن يأتي الربيع كطفلٍ من النوم صحا، وهذه الصورة لاحظناها آنفًا عندما شبَّه محمَّد علي شمس الدين البدر بالطِّفل الذي يدخل خيمة الكروم.

يبدو أن الصور الشعرية تقتصر على التشبيه و"أَنْسَنة" الأشياء، واللافت في هذه القصيدة، رسم المشاهد، والتقاط التفاصيل الصغيرة الدَّالَّة، كأن العين الرائية عين رسَّام، يرسم، على سبيل المثال، طفلًا حَبَا فوق الرُّبَى، والجدول المهرول، والفراشة المرفرفة المرغة جناحيها بالسوسنة، وحقول القمح الذهبية، والثور الذي ينطُّ على أنغام صرصار. ومن اللقطات التفصيلية التي ترسم المشهد الدال نقرأ: "على الأرض حرذونٌ/ وفوق الجذع حرباء/ وهذا ضفدعٌ هرمٌ/ غفا وسريره الماء"، ومع غِنى هذه القصيدة بهذه المشاهد والتفاصيل، نلحظ تقريرية في عدَّة تعابير، كما في قوله: "حلَّ الشتاء بأرضنا/ فصلًا يضرُّ وينفع".

تقدِّم هذه القصيدة معرفة جغرافية طبيعيَّة بشرية، تنتهي بحكمة، وتتخذ بنية سردية وَصْفية خبريَّة متماسكة، تتألف من أربعة أقسام، يتميَّز القسم الثالث – الصَّيف ببنية تنهض بها جمل إسمية. تتصف هذه القصيدة بخصائص عامَّة تجعل منها قصيدة طفل جيِّدة لا تخلو من مآخذ، وهي بعامَّة قصيدة متجدِّدة تطوِّع اللغة العربية والأوزان والقوافي لإقامة بناء شعري طفلي جميل ناطق بالدَّلالة.

وفي الختام، يمكن القول: قدَّمنا، في ما سبق، معرفة بعدد من الشعراء اللبنانيين الذين نَظَمُوا شعرًا للأطفال، وبنماذج من شعرهم، بوصفهم نماذج يمثلون واقع شعر الأطفال في لبنان في المرحلتين: الأولى والثانية من تطوُّره.. ويُلاحظ، في هذه الأيام، بروز اتجاه تجريبي يمثله جيل جديد من الأدباء والأديبات، الشباب والشابات، المختصين بالتربية وعلم النفس التربوي والأدب العربي،

يسعى إلى التجاوز والإتيان بجديد تمليه حقائق العصر، وهذا أمر بَدْهيّ، وهو من سُنن الحياة.

من هؤلاء، نقدِّم أنموذجين: أولهما نادين توما، وهي أديبة وناشرة، وصاحبة دار "قنبز" المختصة بنشر أدب الأطفال، والتي تأسست في 2006/5/1. تقول توما: غايتنا من الكتابة للأطفال تحريض الخيال، وتوليد الأسئلة، وتشكيل فضاء الإجابة عنها، من طريق تقديم أدب جديد غير تقليدي، يلبي حاجات الطفل المعاصر، الذي يعيش في عالم مختلف، ويحب "الخبرية" المدهشة، فنُسهم في حل إحدى إشكاليات هذا القرن المتمثلة بالتأسيس لنشأة طفل مكتمل الإحساس والحواس والتفكير والخيال.

وثانيهما رانيا زغير، وهي أديبة وناشرة أيضًا، وصاحبة دار نشر ، تحمل إجازة في الدراسات المسرحية، وماچستير في علم النفس التربوي. بدأت حياتها المهنية كاتبة أدب أطفال، وأسست سنة 2007 دار نشر مختصة بنشر أدب الأطفال هي "دار الخياط الصغير".

يُلاحظ أن كُلًا من هاتين الأديبتين أسست دار نشر، ونشرت إنتاجًا يجدِّد في أدب الأطفال من منظور معاصر؛ وذلك من أجل أن تكون أكثر استقلالًا وحرية، بغية توفير المعرفة والمتعة للأطفال، وعيش الحياة المعاصرة، إضافة إلى أنهما مختصتان بالتربية وعلم النفس التربوي، وتسعيان إلى التجديد. وقد يكون من المبكر الحكم على هذا التجريب الممتلك معرفة مختصة، والمُدرِك غايته، والناشط في فضاء حرية الإبداع، بُغية تحقيقها.

هوامش

(1) راجع، في هذا الشأن: رفاعة الطهطاوي، المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين، القاهرة: مطبعة المدارس الملكية، د. ط.، المقدِّمة. وأحمد زلط، أدب الطفولة بين كامل كيلاني ومحمد الهراوي، القاهرة: دار المعارف، د. ط. 1994، ص.19 – 25. ومحمد عبد الغني حسن وعبد العزيز الدسوقي، مجلة روضة المدارس، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975، ص.9 - 24.

(2) راجع: فادية حطيط، أدب الأطفال في لبنان، بيروت: دار الفكر اللبناني، 2006، ص. 9 - 24.

(3) راجع: بيان الصفدي، شعر الأطفال في الوطن العربي، نسخة أرسلها لي المؤلف بالبريد الإلكتروني، ص. 188 - 217.

(4) راجع: المصدر نفسه، ص. 217 - 219.

(5) النصوص مأخوذة من: جودت فخر الدين، ثلاثون قصيدة للأطفال، بيروت: دار الحدائق.

(6) نوال العلي، جريدة الأخبار، 2 / 12 / 2008.

(7) طلال سلمان، جريدة السفير، 11 / 9 / 2012.